اَلْـجَـاحِـظُ

أنا عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ ،جِئْتُكُم مِنَ الزَّمَنِ الغابِرِ، أُلَقَّبُ بِالْـجَاحِظ ، فَلا تَـتَـعَجَّبوا مِنْ جُحوظِ عَيْـنَيَّ، فَأَنا لَمْ أُلَقَّبْ بِالجَاحِظِ إِلَّا لِجُحوظِهِما؛ وَقَدْ حَدَثَ مَرَّةً أنْ أَتَـتْنِي امْـرَأَةٌ وَأَنا عَلَى بَابِ دَارِي فَقَالَتْ: لِيَ عِنْدَكَ حَاجَةٌ ، وَأنا أُرِيدُ أَنْ تَمْشِيَ مَعِي. فَسِرْتُ مَعَهَا إِلَى أَنْ أَتَتْ بِـي إِلَى صَائِغٍ فَقَالَتْ لَهُ : مِثْلَ هَذَا! وَانْصَرَفَتْ. فَسَأَلْتُ الصَّائِغَ عَنْ قَوْلِها فَقَالَ: إِنَّها أَتَتْ إِلَيَّ بِخاتَمٍ وأَمَرَتْنِي أَنْ أَرْسُمَ عَلَـيْـهِ صُورَةَ شَيْطانٍ فَقُلْتُ: يَا سَيِّـدَتِي أَنَا مَا رَأَيْتُ الشَّيْطَانَ؛ فَأَتَتْ بِكَ!

كُنْتُ أَعِيشُ فِي الْبَصْرَةِ ، حَيْثُ وُلِدْتُ هُنَاكَ عَامَ 160 لِلْهِجْرَةِ ، وَنَشَأْتُ وَتَرَعْرَعْتُ فِيهَا، وَتَلَقَّيْتُ بَاكُورَةَ عُلُومِي الْعَرَبِيَّـةِ فِيهَا. فَالْبَصْرَةُ فِي تِلْكَ الْأَيَّامُ كَانَتْ مَـرْكَزًا لِلْعُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ. مَاتَ وَالِدِي رَحِمَهُ اللهُ وَأنا مَازِلْتُ فِي سِنٍّ صَغِيرَةٍ مِمَّا اضْطُرَّنِي لِلْعَمَلِ فِي بَيْعِ الْخُبْزِ وَالسَّمَكِ حَتَّى أُوَفِّرَ بَعْضَ النُّقودِ فَأَعِيشَ مِنْهَا أنا وَوَالِدَتِي. وَرَغْمَ ذَلِكَ، لَمْ أَنْشَغِلْ عَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ، فَـكُنْتُ كُلَّما كَسَبْتُ شَيْئاً، اِشْتَرَيْتُ بِهِ كُتُباً وَكُرَّاسَاتٍ، فَإِذَا رَجَعْتُ بِهَا إِلَى بَيْتِي غَضِبَتْ أُمِّي وَقَامَتْ تُوَبِّخُنِي. ((هُنَا يَتَوَقَّفُ الجَاحِظُ عَنِ الْكَلَامِ وَيَضْحَكُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ، ثُمَّ يُكْمِلُ كَلَامَهُ قَائِلاً)):

أَتَدْرُونَ لِمَاذَا ضَحِكْتُ؟سَأُخْبِرُكُمْ عَنِ السَّبَبِ ؛ رَجَعْتُ يَوْمًا إِلَى الْبَيْتِ وَطَلَبْتُ مِنْ أُمِّي أَنْ تُقَدِّمَ لِي طَعَامًا، فَقَدَّمَتْ لِي طَبَقًا بِهِ كُرَّاسَاتٌ فَقُلْتُ لَهَا: مَا هَذَا؟ قَالَتْ لِي: هَذَا هُوَ الَّذِي

أَتَيْتَ بِهِ! فَغَادَرْتُ الْبَيْتَ وَأَنَا أَشْعُرُ بِالْحُزْنِ وَجَلَسْتُ فِي المَسْجِدِ. فَلَمَّا رَآنِي يُونُسُ بْنُ عِمْرَانَ سَأَلَنِي: مَا شَأْنُكَ؟ فَحَدَّثْتُهُ بِمَا فَعَلَتْ أُمِّي. فَأَخَذَنِي إِلَى مَنْزِلِهِ، وَقَدَّمَ لِي الطَّعَامَ وَأَعْطَانِي خَمْسِينَ دِينَارًا.

فَذَهَبْتُ بِهَا إِلَى السُّوقِ وَاشْتَرَيْتُ دَقِيقًا وَطَعَامًا وَعُدْتُ إِلَى دَارِي سَعِيدًا بِمَا اشْتَرَيْتُ. فَلَمَّا رَأَتْ أُمِّي ذَلِكَ قَالَتْ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا؟ فَأَجَبْتُهَا: مِنَ الْكُرَّاسَاتِ الَّتِي قَدَّمْتِهَا إِلَيَّ!

وَحِينَ كَبِرْتُ وَاشْتَدَّ عُودِي ، يَمَّمْتُ وَجْهِي صَوْبَ بَغْدَادٍ ، وَهُنَاكَ الْتَقَيْتُ بِكِبَارِالْعُلَمَاءِ؛ وَأَلَّفْتُ فِيهَا أَكْثَرَمِنْ ثَلَاثِمِائَةِ كِتَابٍ ؛ لَمْ أَدَعْ مَوْضوعًا اِجْتِمَاعِيًّا أَوْأَدَبِيًّا أَوْ ثَقَافِيًّا كَانَ سَائِدًا فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ إِلَّاوَكَتَبْتُ فِيهِ ، وَجَعَلْتُ فِيهِ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِالنَّافِعَةِ الَّتِي جَمَعْتُهَا مِن كَثْرَةِ الْأَسْفَارِ، وَالْأَشْعَارِالرَّائِقَةِ الَّتِي حَفِظْتُهَا وَنَقَلْتُهَا عَنْ جَمْهَرَةٍ مِنْ شُعَرَاءِ الْعَرَبِ. فَخَلَّفْتُ لَكُمْ ثَرْوَةً أَدَبِيَّةً وَلُغَوِيَّةً وَاسِعَةً تَنْقُلُ لَكُمْ صُورَةً صَحِيحَةً وَصَادِقَةً عَنْ حَيَاةِ ذَلِكَ الْعَصْرِ. وَمِنْ أَشْهَرِ كُتُبِي الَّتِي خَلَّفْتُهَا لَكُمْ ، هِيَ : كِتَابُ "الْبَيَان وَالتَّبْيِين" ، وَكِتَابُ "الْبُخَلاَء" وَكِتَابُ "الْحَيَوَان".

وَالْآنَ بَعْدَ أَنْ عَرَّفْتُكُمْ بِنَفْسِي أَسْتَأْذِنُكُمْ لِأَعُودَ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُ...